

محاولة في عقلنة الطقوس، نقد نظرية العود الأبدي لميرسيا إلياد.

أحمد زغب، جامعة وادي سوف، الجزائر

zegheb@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2019/12/23

تاريخ الإرسال: 2017/07/10

ملخص:

شعور الباحثين بلا عقلانية الطقوس، سواء أكانت سحرية أم دينية، جعلهم يقدمون محاولات عديدة لعقلنتها، من ذلك محاولة عالم الأديان البولندي الشهير مرسيا إلياد، والتي تقوم على نظرية: "العود الأبدي". تحاول الورقة شرح النظرية مروراً بتعريف الطقوس بنوعيتها، ونقد نظرية إلياد، وتقديم تفسير آخر يربط الطقوس بالديني دون قطيعة مع المقدس.

Résumé:

Les chercheurs –ressentant l'irrationnelle du rituels- ont beaucoup essayé d'en rationaliser, que se soit religieux ou magique. Entre autre citons la tentative du théologien Polonais Mercia Eliade basée sur l'idée de ce qu'il nomme " Le retour éternel"

Ce document est un essai d'explication de la théorie, et définition du concept rituel, et donner le critique de la théorie et fournir une autre explication de la persistance du rituel en le liant au profane sans rupture avec le sacré.

تمهيد:

الطقوس سواء كانت دينية أو سحرية، تشترك في كونها توسط قوى غيبية بين الأسباب والنتائج، والقوى الغيبية تعتمد على اعتقاد يفترض وجود حقائق و(أو) كائنات ما وراءية غير قابلة للعرض على محك التجربة.

الخبرة الدينية تقوم على الإحساس الداخلي القوي بوجود قوى فوق طبيعية، ويرى فراس السواح أن التدين حالة غريزية متمكنة في السيكلولوجية البشرية تنتج عن تجربة داخلية يعانها الفرد في أعماق نفسه ، قوامها مواجهة فريدة مع قوى عليا منبثة في هذا العالم وتنتمي إليه في آن معا، وهذه التجربة ذات طابع انفعالي لاعقلي، ولا يمكن التعبير عن هذه التجربة أو هذا الانفعال بلغة الحياة العادية¹.

تصل التجربة الدينية إلى حالة من الشدة، تستدعي القيام بسلوك ما من أجل إعادة التوازن إلى النفس التي غيرت التجربة من حالتها الاعتيادية، وهذا السلوك هو بداية الطقوس، ومن هنا فالطقوس في بداية عهدها على الأقل (للتحفظ عن الطقوس الانفعالية في حالات خاصة كحالات الوجد الصوفي) انفعالية لا عقلية.

– عقلنة الطقوس:

والسؤال الذي نطرحه في هذه الورقة، هل وكيف يمكن عقلنة الطقوس؟

قبل محاولة الإجابة عن السؤال، نجب عن سؤال آخر قد يتبادر إلى الأذهان ؟ ما معنى العقلنة؟

إنها استنباط تفسير عقلائي مقبول لفكرة ما أو سلوك ما أو رأي ما بالترشيد في الاستعمال العقلائي ، فالعقلانية هي تحكيم العقل المنطقي والتجريبي في شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، وتحييد العواطف والأهواء والإيديولوجيات، وإتباع المنهج الموضوعي في القرارات والأحكام²¹. وحسب معجم لاروس تبرير منطقي واعى لسلوك يقوم على مبررات لا واعية³ أو غير مطابقة لقواعد السلوك .

وقبل أن نقدم محاولتنا في عقلنة الطقوس بنوعيتها (سحري وديني)، نقدم محاولة عالم ومؤرخ الأديان الشهير مرسيا إلياد * Mercia Eliade. ثم نعقب عليها، وننتقل من هذا التعقيب لتوضيح محاولتنا. من المعروف أن فكرة العود الأبدي بدأ بها الفيلسوف الألماني نيتشه؛ الذي يرى أن الوجود صورة واحدة تتكرر بلا انقطاع في الزمن اللانهائي، كل شيء يغدو وكل شيء يعود وإلى الأبد تدور عجلة الوجود. كل شيء يبدي، وكل شيء يحيا من جديد وهذا التكرار يتناول كل التفاصيل، وكل الأحوال التي يمكن لهذا العالم أن يصل إليها، قد وصل إليها من قبل لا مرة واحدة بل مرات لا نهائية. فهذه اللحظة التي أنا فيها وجدت من قبل عدة مرات وهكذا...

ويقول إن فكرة العود الأبدي لا تقضي على حرية الإنسان بل تلخصها من الحاجز الذي كان يحد منها حتى الآن، حاجز ثبات الماضي لأن الماضي هو نفسه المستقبل، فالإنسان ليس أسير الزمن بل اللحظة ليست هاربة، إنما تصادم بين الماضي والمستقبل والإنسان يستيقظ في هذا التصادم ويحقق وجوده الحر⁴.

يرى مرسيا إلياد أن الأفعال البشرية ليس لها قيمة في ذاتها، بل تكتسب قيمتها الحقيقية إذا ربطت بعلاقة ما بشيء ما فوقها (ميتافيزيقيا) فالشيء يبدو وعاء لقوة خارجية هي التي تعطيه المعنى.. فالصخرة تعتبر مقدسة لأنها تعبر عن القدسي، والأفعال البشرية عند الإنسان القديم ليست تلقائية إنما هي تكرار لفعل بدئي، وكل فعل يقول به الإنسان إنما قام به آخر لم يكن بشرا عاديا، وما الحياة إلا تكرار لما فعلته الكائنات المقدسة في الزمن البدائي⁵.

والطقوس في نظر إلياد هي إلغاء الزمن الدنيوي والعيش في الزمن الأنطولوجي البدائي فيختفي الدنيوي ويتحد الفرد مع الزمن المقدس الخالد.

ولهذا لا يستطيع الإنسان البدائي أن يتحمل التاريخ، فيلوذ بالتاريخ المقدس أي: الأسطورة، من أجل إلغائه بصفة دورية وإعادته التاريخ بنفسه عن طريق أسطرته، فذكرى الحدث الواقعي التاريخي لا يصمد في الذاكرة الشعبية أمدا طويلا، إنما يتحول إلى حدث أسطوري وتبطل الشخصيات التاريخية وتحولها إلى نماذج بدائية⁶.

فلكل طقس مثال إلهي أو نموذج أصلي، ويعتقد الإنسان البدائي أنه يجب عليه أن يفعل ما فعلته الآلهة في البدء، ويضرب إلياد أمثلة عديدة عند الإنسان البدائي و حتى المعاصر، نكتفي منها بهذين

المثالين، إن الإنسان يعمل ستة أيام في الأسبوع ثم يستريح في اليوم السابع، فمحاكاة الراحة يوم السبت في اليهودية محاكاة لما فعله الرب في الزمن البدائي فعطلة يوم السبت محاكاة للإله تعيد الفعل البدائي الذي قام الرب لأنه خلق الدنيا في ستة أيام استراح من جميع عمله الذي خلقه الله⁷. كما أن طقوس الزواج هو إعادة لطقوس الزواج المقدس بين السماء والأرض، وكل حركة في الزمان تجدد تبريرها في الزمن الأصلي من الأزمنة الميثية⁸.

- نقد النظرية:

يبدو لنا في البداية أن هذه النظرية محاولة لتسوية الطقوس اعتمادا على معتقد، بوجود أحداث نموذجية أولية وهي فكرة غامضة لا تصمد أمام محك الاختبارات التجريبية، بالإضافة إلى أن الفكرة تقصي التاريخ الفعلي للإنسان وتجعله تجليات مكرره لأفعال الآلهة (أي : زمن أسطوري)، وتشل إرادة الإنسان وتجعله سلبيا أمام قوى الطبيعة.

يرى خزعل الماجدي أن فكرة العود الأبدي وهي الحجر الأساس لكل دين أصبحت مؤثلا للمذاهب الأصولية التي جنحت نحو الأصولية والماضي، وعندما أدرجت الدين وغدت أنظمة قهرية استبدادية مارسها الأصوليون في الدين السياسة، غدت نظاما سلبيا تماما⁹.

هذا الجانب يعبر عنه الماجدي بالوعي الشقي بفكرة العود الأبدي، أما الوعي الجميل بهذه الفكرة فبما هو موجود في سلوكنا وحياتنا بشكل واضح يجعله مصدرا للإبداع الفني حين تستثمر الأساطير في الأعمال الأدبية والفنية.

وسواء أكان الوعي بهذه الفكرة شقيا أم جميلا، فالفكرة تبقى رجما بالغيب من الناحية الواقعية، وهو تفكير لا عقلي يهدر مفهوم السببية ويفسر العلاقات بين الإنسان وأفعاله تفسيرا قائما على الميتافيزيقا، وتفكير كهذا يعطي أصحابه الحق في النطق باسم الإله والمقدس وادعاء بامتلاك الحقيقة الإلهية المطلقة، ومن ثم إقصاء كل تفكير مخالف، ونفيه وتكفيره.

- محاولات للعقلنة في التراث الإنساني:

وعقلنة الدين ليس أمرا جديدا في التفكير الإنساني، فقد وجدنا عددا من المفكرين سواء في الغرب أو في العالم الإسلامي، كلهم دعوا إلى عقلنة الدين، أو إخضاعه لحدود العقل، أو في أحسن الأحوال التمييز بين عقل ديني وعقل فلسفي، وهذا مؤشر واضح على أن الغيبات التي يعتمد عليها الدين في إصدار القيم المطلقة واليقينيات المسيطرة، دعت إلى الحاجة للعقلنة والوضوح والبحث عن الحقيقة في مطابقتها للواقع والتي يرتاح ويطمئن إليها العقل لاستنادها على معرفة ضرورية.

من هؤلاء الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، الذي قال بالدين في حدود العقل مشيرا بذلك إلى أن جوانب من الدين تكون خارج حدود المعقول، وماكس فيبر يدعو إلى إعادة الاعتبار إلى النزعة العقلية

في الدين، وابن رشد الفيلسوف العربي الذي قال بتحكيم العقل باعتباره واجبا شرعيا، وقد ظهرت مدرسة كاملة في القرون الذهبية للإسلام تسمى مدرسة المعتزلة قاموا بمحاولة إخضاع الدين لحكم العقل. وأخيرا وجدنا محمد أركون الذي ميز بين عقل ديني وعقل فلسفي، فالأول يشتغل داخل إطار المعرفة الجاهزة التي تعتقد في صحتها دون تثبت، ويستخرج أفكاره بالاعتماد على العبارات النصية للنصوص المقدسة كالكتاب المقدس أو القرآن الكريم. أما العقل الفلسفي في نظر أركون فهو الذي يرفض الاشتغال داخل الأقفاص والأسيجة المغلقة وفي نطاق المعرفة الجاهزة أي أنه ملكة تخلق أفعال المعرفة بكل سيادة وهيبة¹⁰.

— محاولتنا في عقلنة الطقوس:

أما محاولتنا فهي تركز على فكرة ماكس فيبر، الذي رأى كل ممارسة دينية محفزة هي ممارسة نحو العالم الأرضي وليس بالضرورة موجهة إلى العالم الماورائي، إنما نرى أن الطقوس باعتبارها نظاما من الرموز والإشارة هي نظام تواصل مع القوى الماورائية من جهة، وبين الجوانب الاجتماعية الدنيوية من جهة أخرى.

هذا عن الطقوس الدينية، غير أن مقارنتنا هاهنا، لا تستثني أنواعا أخرى من الطقوس كالسحرية، وهي كلها تقوم على عامل الغموض واللامعقول -على الأقل- في مستوى العقل التجريبي. يمكن ببساطة عقلنة الطقوس إذا نظرنا إليها من منظور اجتماعي محض، فالطقوس نظام تواصل بين الأفراد وبين الفرد والمجتمع، يدرج الفرد في مجتمعه وتقوي الوعي الجمعي.

فالإنسان يتواصل مع مجتمعه، ينخرط ضمن المؤسسات الاجتماعية، فكلما كان احترام الفرد للمعايير الاجتماعية، كانت المكانة التي تبوؤها في كنف مجتمعه أفضل، ومن أهم هذه المعايير احترام الطقوس الجماعية وإقامتها، فحضور الزواج والتهنئة والمشاركة، ولو بالحضور، يحسن نظرة المجتمع لهذا الفرد، وعدم حضوره أو حتى استهائته بالحفلات الطقوسية الجماعية، سواء أكانت طقوس مظهرها ديني أو اجتماعي (زواج وفاة... الخ) يسيء إلى مكانة هذا الفرد في كنف المجتمع الذي ينتمي إليه، فهي إذن بمثابة المؤسسة الاجتماعية التي تفرض قوانينها على الأفراد بحيث تعاقب الفرد الذي يتجاوز تلك القوانين، مهما كانت درجة العقوبة.

هذا عن الفرد، أما عن المجتمع، فالطقوس تسهم في تجييش الذهن الجمعي *mentalité collective* وشحن رمزي برموز القداسة، وتقوية وعيها الجمعي، وتدعم انتماء الأفراد إلى المنظومة الأخلاقية والقيمية، وتولد حالة من الغليان والحماس الجماعي بفضل انخراط الجميع في الطقوس¹¹.

نجد أمثلة واضحة في الطقوس الجماهيرية حين يكثُر عدد المشاركين في الطقوس، يصبح الأفراد أكثر ارتباطا بالوعي الجمعي العام، ويشد حماسهم إلى الجماعة التي ينتمون إليها، نلمس واضحا في موسم الحج، بسبب كثرة الطقوس واجتماع أعداد مهولة من المسلمين في زمن واحد وفي مكان واحد،

واشترآكهم في ترديد شعارات أو عبارة شعآئرئة واحدة، والقيام بالأفعال نفسها، يجعل المعتقد يتدعم إلى أشد ما يمكن أن يكون عليه الدعم، والإيمان بالجماعة وقوتها باعتبارها سندا قويا للفرد في موقفه مع الميتافيزيقي من جهة ، ومع الواقع الاجتماعي من جهة أخرى.

وكل من التقى بعائد من الحج أو العمرة ، يستطيع أن يلحح بسهولة المعنويات العالية التي عاد بها الفرد الممارس للطقوس الجماعية، وثقته بالانتماء إلى الدين وبالخلاص فيما بعد الموت.

أما عن تقوية العلاقات داخل الجماعة، فيمكن أن نضرب لذلك بأمثلة من ممارسات زوار الضريح المقدس لحد الأولياء الصالحين، في الوعدة السنوية، فارتباط المريدين بوليهم الصالح يقوي ارتباط الأفراد بعضهم ببعض، يسهم بشكل أو بآخر في قضاء مآرب دنيوية اجتماعية واقتصادية، كربط أوأصر العلاقات الاجتماعية عن طريق التصاهر، أو تبادل الخبرات في المجالات الزراعية مثلا أو تربية الحيوانات أو غير ذلك، الأمر الذي يجعل المقدس وسيطا حافظا لا غير.

وللطرفة، فإن المعبد الوثني يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الضريح المنتمي للثقافة الإسلامية (= الولي الصالح)، فمعبد إله النور عند المصريين القدماء، كما أشار الأستاذ حسين أحمد أمين، وكل الطقوس التي كانت تقام حوله، تحولت في شكلها الدنيوي: الاجتماعي والاقتصادي، إلى ضريح الشيخ القناوي في مدينة قنا المصرية¹².

فالفرد الذي يعيش لذاته، يصبح اجتماعيا بامتياز حين ينخرط في نشاط جماعي، وتكسبهم هذه الروح الجماعية طاقة حيوية، تجعلهم يتجاوزون فرديتهم، ويصبح أقوى مما كان عليه وهو بمفرده، فالفعل الطقوسي الجماعي يولد حرارة تدخلهم في زمنية خاصة، ومثل هذه التجربة الخلاقة، تثبت أن في الذات الفردية ذات أخرى جماعية كامنة تجعلها الطقوس تستفيق.¹³

إذا اعتبرنا الطقوس نظام تواصل بين الإنسان وأخيه الإنسان وبين الإنسان والمقدس في ذات الوقت ، فإذا أخذنا بنظرية العود الأبدي، لمرسيا إلياد، فالتواصل مع المقدس باعتباره معتقدات وثوقية **dogmes** يفرضها المجتمع على الأفراد بسلطته الجبارة، وهذا الاعتقاد يكون بقيمة مطلقة، ويقوم على الحقيقة الواحدة الإلهية ورفض ما عداها ويبرر التعصب ويصبح الدين بالتالي مصدر انسداد التواصل.

فالطقوس كنظام تواصل بين الإنسان وهذا العالم المقدس المتعالي على العقل، لا يمكن دراسته دراسة علمية موضوعية ، لأن المتعالي على العقل لا يمكن إخضاعه للدراسة العقلية. وبقيت إذن قناة واحدة للتواصل هي القناة الأرضية التي أشرنا إليه في البداية اقتباسا عن ماكس فيبر **Max Weber** وهو التواصل الأرضي. بين الإنسان وأخيه الإنسان بين الفرد والمجتمع، وبين الجماعة والجماعة.

دون أن نهمل أن التواصل مع العالم القدسي، يحقق للإنسان القيم الروحية المتعالية، والاطمئنان النفسي، فالإنسان في حاجة إلى التواصل مع هذا المقدس، فالمقدس هو الضامن للتماسك الاجتماعي

ويغذي هذا التماسك في أبعاده الروحية والاجتماعية كما يرى دوركهائم فهو يعمق التواصل بين الإنسان والإنسان كما رأينا في الاحتفالات الدينية¹⁴.

- ¹ - فراس السواح، دين الإنسان، علاء الدين، دمشق، 2002، ص52
- ² - زهير الخويلدي: هل تؤدي عقلنة الدين إلى تدين العقل مجلة أنفاس www.anfasse.org
- ³ - le petit Larousse illustré p844
- ^{*} - عالم ومؤرخ أديان وروائي روماني ولد في بوخارست 1907 وتوفي 1986 في شيكاغو أمريكا
- ⁴ - ينظر: عبد الرحمن بدوي، الموسوعة الفلسفية، ص515
- ⁵ - مرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدي، ترجمة، نهاد خياطة، دار طلاس، دمشق، دت. ص19
- ⁶ - المصدر نفسه ص 47
- ⁷ - الكتاب المقدس ، سفر التكوين الإصحاح 3/2.
- ⁸ - إلياد، نفسه ص50
- ⁹ - خزعل الماجدي، العود الأبدي العودة للأصول وصراع الأسطورة التاريخ، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ص40
- ¹⁰ - محمد أركون، نقد العقل الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، 1991.
- ¹¹ - منصف المحواشي، الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحول. مجلة إنسانيات 2010 ع49
- ¹² - ينظر: حسين أحمد أمين: دليل المسلم الحزين، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر. ص133
- ¹³ - المحواشي، المرجع نفسه.
- ¹⁴ - الشاذلي الكسابي : النظم الرمزية وسائط للتواصل ام للانعزال مجلة الفكر.